آلام المسلمين

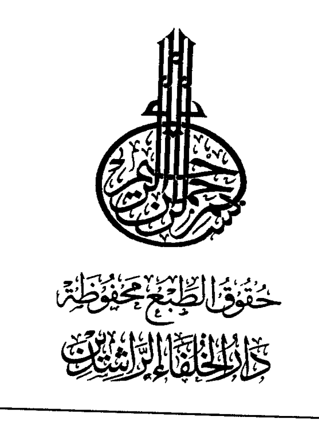
بين كيد الأعداء وتفريط الأبناء

كتبه

ياسر برهامي



دار الفتح الإسلامي
بمصطفى كامل



رقم الإيداع :

دار الخلفاء الراشدين
ج . م . ع - الإسكندرية - حي الرمل
ش منشية الزهراء - أبو سليمان
٠١٠٦٧١٤٧٦٨/٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٥٠١٣١٥١/٠١٠٧٣٨٢٧٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ ، أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، ثم أما بعد :

آلام المسلمين كثيرة ، ما أكثرها في المشارق والمغارب ، في الشمال والجنوب ، آلام من دماء تُسفك ، أعراض تُنتهك ، خوف ورعب ، بيوت تُهدم ، أموال تُغتصب ، الأرض تُسلب من المسلمين ، بلاد تؤخذ منهم كان يعلو فيها الحق بإذن الله ﷻ فإذا بها يعلو صوت الباطل والشرك والكفر ـ والعياذ بالله ، هذه الآلام الكثيرة كانت ـ ولا تزال ـ عبر التاريخ موجودة ، إنما نذكر بعضها ونستحضر باقيها حتى نؤدي شيئًا من النصح للمسلمين ، فإن من لم يشعر بآلام المسلمين ولم يستحضر ما هم فيه من الهم والكرب والحزن والبلاء فإنه يحكم على نفسه بالانفصال عن ذلك

الجسد ، أو أن هذا الجزء قد مات من ذلك الجسد ، فالرسول ﷺ قد قال : « **مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهِم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسَدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تَدَاعَى له سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحمَّى** » [رواه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) ، وهذا لفظ أحمد (١٧٩٠٧) ، (١٧٩١٣)] ، وقد قال ﷺ : « **الدين النصيحة** » [رواه مسلم (٢٠٥) الإيمان ، وأبو داود (٤٩٤٦) الأدب ، والنسائي (٤٢١٤) البيعة ، وأحمد (١٠٢/٤)] ، ومن النصيحة للمسلمين أن تأْلَمَ لآلامهم ، وأن تفرح لأفراحهم ، وأن تهتم لهمومهم .

أَلِأَنَّكَ تَبِيتُ في بيتك مع أهلك وأولادك مطمئنًا ـ أو هكذا تظن ـ تنسى آلام المبعدين الغرباء ؟ وتنسى آلام المحرومين الجوعى والعرايا ، وتنسى آلام المشردين الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، وأُخذوا بعيدًا عن أهليهم وأحبتهم ؟ أو هؤلاء الخائفين الذين يأتيهم من أنواع الخوف والهلع ما الله أعلم به ، إن ذلك ليقتضي منا بلا شك على الأقل إذا عجزنا أن نمد لهم يدًا بالمساعدة وألا تكون قلوبنا جامدة قاسية عن الشعور بآلامهم ، عَلَّها تتحركُ في صدقٍ بالدعاء لهم وطلب النجاة لهم من الله ﷻ المؤمن المهيمن ﷻ ، لذلك نتكلم في هذا الأمر أولًا ، ثم إننا نتكلم فيه لأمور أخرى وفوائد عديدة منها :

أن نوقن أن الله ﷻ هو العليم الحكيم ، فالله ﷻ ما قدر هذه الآلام إلا لحِكَمٍ وغاياتٍ محمودةٍ ، فهو العزيز الحميد ﷻ ، ألم تسمع قول الله ﷻ : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] ، فهو ـ سبحانه ـ العزيز رغم أن أولياءه قد قتلوا ، وهو ﷻ الذي قدر ذلك عليهم ، وهو سبحانه مستحقٌّ للحمد على ذلك فله الحمد على كل حال .

وهذه الحكم والغايات المحمودة من تقدير البلايا والمحن تقتضي منا أن نسعى في تحصيل هذه الغايات ؛ لأنها إذا حصلت زالت البلايا والمحن ، فإن الله ﷻ ما قدر هذه الآلام على المسلمين إلا للخير الذي يريده ويحبه ﷻ ، وهكذا سنته ﷻ في كل ما يقدر من الأمور المكروهة التي لا يحبها ولا يرضاها ، فالله ﷻ لا يحب الظالمين ، والله لا يحب الفساد والله يكره مساءة المؤمن ، ألم تسمع لقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ : « **وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعِلُه تَرَدُّدِي عن نفْسِ المؤمِنِ يَكرَهُ الموتَ وأنا أكرَهُ مساءتَه** » [رواه البخاري (٦٥٠٢)] ، فالله يكره مساءة المؤمنين ، ومع ذلك قدر عليهم ما يكرهون ليجعل الله في ذلك خيرًا كثيرًا ، ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ، فنحمد الله أولًا رغم الآلام ، بل نحمده على الآلام ، ﷻ له الحمد على كل حال ، وهو ﷻ الحميد الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، وشهودنا لهذه الحِكَم وشهودنا لاسمه الحكيم ﷻ ولاسمه العليم ﷻ من أعظم النعم والغايات المحمودة ، فهذه البلايا والمحن لها حِكَم عظيمة لمصلحتنا ، فقد قدرها سبحانه لكي تصدر منا أعمال معينة أهمها الإيمان ، فإنما قدر الله مداولة الأيام بين الناس لنؤمن ؛ أي : ليقع منا الإيمان ، قال الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١] ، فهذه أول الحكم ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ لكي نؤمن ، والإيمان - كما نعلم - : قول وعمل ، فقدر الله ﷻ سنة المدافعة بين الناس صلاحًا للأرض وأهلها ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] ، وذلك أن الإيمان بدون مواجهة مع الكفر والطغيان والظلم والباطل يضعف في نفوس الناس تدريجيًا ، وهذا والله أمر ملحوظ تجده عند المترفين وتجده عند من لا قضية لهم ، عند من لا يشعرون أنهم في

المعركة من أجل الإسلام ، تجد إيمانهم يضمحل تدريجيًا ولا يجد نفسه مستشعرًا حين يقرأ القرآن تلك المعاني العظيمة التي وقعت في قلوب الصحابة ﷺ يوم نزلت هذه الآيات ، ولا يستشعر هذه العبادات القلبية الواجبة التي لا بد من تحصيلها ، فإذا حصلت زالت الآلام والمحن ، فالله ﷻ قدر هذه الآلام والمحن لكي نؤمن ولكي نَصْدُقَ مع الله ﷻ ؛ أي : لكي نكون صادقين في قولنا : آمنا ، كما قال ﷻ : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١-٣] ، ونحن نعلم أنه يعلمهم ﷻ قبل وجودهم ويعلم كل شيء قبل خلق هذا الوجود كله ، فصفة العلم صفة أزلية من صفات الله ﷻ ، وهو العلم الأول السابق قبل وجود المخلوقات ، قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ولم يزل ﷻ كذلك ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، ومعنى قوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣] ؛ أي : علمًا يحاسبهم عليه ، أي ليعلمه علم شهادة بعد أن علمه علم غيب ، وليعلمه قد وقع منهم بعد أن علمه سيقع ، فإن الله يحب أن يرى منا الصدق ، كما قال ابن عباس : « ليَرى الذين آمنوا » أو ليرى الذين صدقوا ونحو ذلك ، والله أعلم ، فالله ﷻ يحب منا الصدق ،

والصدقُ ليس في الكلام فقط وإنما نزلت الآيات : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] في مثل أَنَسِ بن النضر ﷺ وفي إخوانه الذين صدقوا بالعمل بعد أن صدقوا بالقول ﷺ ، فالله ﷻ يحب أن يُوجد من المؤمنين من يبذل نفسه وماله وكل شيء عنده في سبيله ﷻ فيستشهد ، ويحب هذه الدماء التي تُراق في سبيله ؛ لأنها أُريقت من أصحابها حبًا له ﷻ ونصرة لدينه ، وهو ﷻ يتقبلها منهم ويبعثهم يوم القيامة : اللون لون الدم والريح ريح المسك ، كما أخبر النبي ﷺ ، لذلك قدر أن يتسلط الكفار على المسلمين ليستشهد من يستشهد ، ولينفق من ينفق ، وليظهر المنافقون كذلك البخلاء الجبناء : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، كذلك يحب الله ﷻ عبادة الصبر ، بل هي المفتاح الذي مع التقوى يغير الله ﷻ به ما بنا ويرد الله ﷻ كيد أعدائنا ، فالمشكلة عندنا ، فبالصبر والاحتساب ورجاء الفرج من عنده ﷻ يفرج كربات المسلمين ، وإنما قدر الكربات أصلًا ليصبروا : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٠] ، وهو البصير سبحانه قبل أن يصبروا وبعد أن يصبروا ،

ولكنه يحب ﷻ أن يرى صبرهم ويحب أن يثيبهم عليه ، فقال : ﴿ أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ هو ﷻ قدر أن يُبتلى المسلمون بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وهذه قبل أن تجري عليهم بكيد أعدائهم إنما تجري بتقدير الله ﷻ فقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ ، ولم يقل : وليصيبنكم شيء ، وإنما قال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥-١٥٧] ، فكيف تحصل الصلوات وكيف تحصل الرحمة وكيف يحصل الهدى وكيف يحصل الصبر وكيف يشهد المؤمنون أنهم ملك لله ﷻ يفعل بهم ما يشاء ، وأنهم إليه راجعون فيحققون الإيمان باليوم الآخر ، كيف يحدث ذلك بغير الآلام ؟ إن ولادة المولود لا بد أن تسبقها آلام المخاض ، وهكذا التمكين لأمة الإسلام لا بد أن تسبقه هذه الآلام وهذه الدماء ، إلى أن يولد ذلك الذي كتب الله حياته ، فالطائفة المؤمنة لا تموت بإذن الله - تبارك وتعالى - إلى يوم القيامة ، كما قال النبي ﷺ : « **لا تزالُ عِصابةٌ مِن أمتي يقاتِلون على أمرِ الله قاهِرين لعدوِّهم لا يضرُّهم مَن خالفَهم حتى تأتيَهم الساعةُ وهم على ذلك** » [لفظ مسلم (١٩٤٢)] ،

فإن ماتَتْ طائفةٌ وسُفكت دماؤها وانتهكت حرماتها وُلِدَت بعدها طائفةٌ أخرى ، ولكن مع آلام الأولى والثانية إلى أن يأذنَ الله ﷻ بالنصر والتمكين .

كذلك قدر الله الآلام ؛ لأنه يحب أن يسمع تضرعنا ودعاءنا واستغاثتنا ، هكذا أخبر ﷻ قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ [الأنعام : ٤٢-٤٣] ، فهذا التضرع يحبه الله ﷻ ، يجب أن تقوم القلوب قبل الأبدان ذليلة لله منكسرة له فقيرة إليه ، تعلم أن لا ناصر لها في الأرض سواه ، وإن اجتمعت الأمم من أولها إلى آخرها فالله نعم المولى ونعم النصير ، فمن أيقن بذلك وقام لله ﷻ داعيًا متضرعًا مستغيثًا راجيًا ، يتشبه بقيام رسول الله ﷺ ليلة بدر وهو يرى قريشًا معها إبليس شخصيًا قد جاءت بحدها وحديدها وأشرافها وكبرها يحادّون الله ورسوله ، فما نام رسول الله ﷺ تلك الليلة وإنما ظل يصلي ويبكي يتضرع إلى الله ﷻ ، هكذا يقول علي ﷺ : « ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائمٌ إلا رسولَ الله ﷺ » [رواه أحمد (١٠٢٦) ، (١١٦٥)] ، وفي ذلك أنزل الله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال : ٩] ، فالله يجب أن نستغيث به ، ووالله لا يُغيثُنا سواه ﷻ ولا ملجأ لنا إلا

إليه ، وتضرعُنا بين يديه من أعظم أسباب كشف الكرب والهم ، وهو ﷻ وعدنا الإجابة وأخبر ﷻ أنه يجيب دعاء عباده : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] تأمل هذا الترتيب العجيب تجده وسيلة المسلمين بإذن الله ، والآلام الكثيرة تشعر العبد بالاضطرار ، والخوف الشديد يشعره بالاضطرار ، فيتضرع إلى الله فيكشف الله السوء ، وبعد كشف السوء وزواله يستخلفنا الله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ﷻ ، هو ﷻ يحب أن يسمع التضرع ويحب أن يسمع الدعاء ، ويُنزل السكينة على ذلك : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] ، هو قدّر المواجهة مع الكفر لكي يلجأ إليه المؤمنون ، لكي ينزل السكينة في قلوبهم ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ، من أجل ذلك قدر المحن وقدر الآلام ، فله الحمد ﷻ على ذلك كله ، وعندما يزداد الكرب والخوف والألم ، وعندما يكون هناك رد فعل طبيعي منا إن كنا صادقين نتشبه برسول الله ﷺ حين صلى في الليل ليلة الأحزاب ، ليلة الريح الشاتية الباردة المطيرة ، الليلة المظلمة التي لم يبق معه فيها ﷺ حول الخندق إلا ثلاثمائة من أصحابه الكرام ، ورحل كثيرون ، قالوا : إن بيوتنا عورة ، ورسول الله ﷺ في سكينة عجيبة يصلي هويًا من الليل ، ثم

يقول لأصحابه : « **ألا رجُلٌ يأتيني بخبر القوم جعله اللهُ معي يومَ القيامة** » [رواه مسلم (٤٧٤١)] ، فمن شدة الجوع وشدة الخوف والجهد والتعب والإرهاق والظلمة وفي الريح الشاتية الباردة لم يتحرك أحد ، وفي القوم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وباقي هؤلاء الأفذاذ ﷺ فلا يلتفت إليهم رسول الله ﷺ معاتبًا لأحد ، بل يلجأ إلى الله يصلي كثيرًا فصلى هويًا من الليل يتضرع إلى الله ﷻ في هذه الزلزلة التي قال ﷻ عنها : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١١] نعم ، عندما نرى أحزاب الدنيا قد اجتمعت علينا من يهود ونصارى وملاحدة ومشركين ومنافقين من جميع أنحاء الأرض نتذكر يوم اجتمعت الأحزاب - أحزاب العرب - ، والمقاييس في ذلك الوقت بميزان الناس لا يمكن أن تكون في صالح المسلمين ، عشرة آلاف في مواجهة ثلاثمائة بقوا وثبتوا مع النبي ﷺ ، فماذا يفعل النبي - عليه الصلاة والسلام - ولم يستجب أحد لترغيبه دون الطلب ؛ لأنهم لم يكونوا ليخالفوا طلبه ؟ صلى مزيدًا من الصلاة ، ويكرر الترغيب مرة ثانية : « **ألا رجُلٌ يأتيني بخبر القوم جعله اللهُ معي يومَ القيامة** » فلا يتكلم منهم أحد ، فيتركهم - عليه الصلاة والسلام - ويصلي هويًا من الليل ، فيقول في الثالثة : « **ألا رجُلٌ يأتيني بخبر القوم جعله اللهُ معي يومَ القيامة** »

فلا يتكلم منهم أحد ، فيقول : « **قم يا حذيفة فأتنا بخبَرِ القوم** » وكانوا ﷺ لا يمكن أن يخالفوا أمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، إنما لم يتحركوا عندما كان الأمر مستحبًّا ؛ لأنه كان ترغيبًا دون عزيمة في الطلب ، ولكن لما قال : « **قم يا حذيفة** » ما كان من هذا بدٌّ ، فقام حذيفة ﷺ وذهب إلى القوم ينظر كيف تفعل بهم الريح وكيف تفعل بهم جنود الله ، تسفي عليهم الريح تكفأ قدورهم وتقلع خيامهم ويقول أبو سفيان : « النجاءَ النجاءَ إني مُرتحلٌ » ، ترحل قريش وترحل غطفان بدعاء النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فالأمور العظمى تتقرر في الصلاة بدعوة صادقة أثناء العبادة ، وأثناء التضرع تنكشف البلايا والمحن ، ويعود حذيفة ﷺ ، ذهب كأنه في حمّام وعادِ وكأنه في حمّام إلى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكيف وجده ؟ وجده يصلي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، هكذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الدوام متضرعًا إلى الله ﷻ مسبحًا ذاكرًا ، فالتضرع إلى الله من الحكم البالغة التي من أجلها قدر الله ﷻ وجود البلايا والمحن .

كذلك صدْقُ التوكل على الله ﷻ : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٢٢] ، وحسْن تفويض الأمور إليه ﷻ والثقة الكاملة به : ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] ،

وقال ﷻ : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦١-٦٢] ، وقال ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٣-١٧٥] ، إفراد الله ﷻ بالخوف والرجاء وأن تنتظر من الله الفرج لا من سواه ، ﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : « ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ » .

[رواه البخاري عن ابن عباس]

والتمحيص لعباد الله المؤمنين من أَجَلِّ الحِكَم وأنفعِها ليظهر النفاق علانية بعد أن كان مستكنًّا في القلوب ، فلا يتولى المنافقون أمرًا للمسلمين بعد ذلك ، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [آل عمران : ١٤١] ، ومحق الكافرين فهو ؛ لأنه ﷻ يريد أن يمحقهم بعدله ، وهذه كلها حكم ومصالح من تقدير البلايا .

ومن أعظم ذلك وأهمه ظهور آثار أسمائه الحسنى وصفاته العلا لعباد الله المؤمنين في هذا الوجود ، فالله ﷻ تعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته في كتابه ، وتعرف إليهم بآثارها في هذا الكون الواسع

المشهود ، فالله ﷻ يريد أن يُظهر لنا نفوذ إرادته ﷻ ، فإرادته ﷻ نافذة ومشيئته في أن يظهر منته على المستضعفين وإرادته في كسر الجبارين المتكبرين واقعة ، وهل يقع ذلك إلا بوجود الاستضعاف أولًا ثم يمن على المستضعفين ثانيًا ، ففي سورة القصص [في قصة موسى] قبل أن تذكر تفاصيل القصة يذكر الله إرادته أولًا : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥-٦] ، فالله ﷻ فعّال لما يريد ، كيف يظهر للناس ذلك ؟ بوجود البلايا والمحن وهذه الآلام ليظهر بعد ذلك أنه العزيز وأنه ذو انتقام وأنه ﷻ المنان ، كذلك ليظهر ملكه ﷻ ، فلا بد من إعزاز وإذلال ولا بد من تقليب الممالك ، ليعلم الناس أن الملك لله وحده لا شريك له ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦-٢٧] ، فلا بد من تبادل الملك .

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومًا نُساءُ ويومًا نُسَرُّ

فلا بد من أن يحدث هذا الإعزاز والإذلال لنعلم أن الله وحده

هو المعز المذل وأنه وحده هو الخافض الرافع ، لا بد من محن وآلام ليعلم الناس أن الله وحده هو الذي يكشف الكرب ، وأنه وحده هو الذي يكشف الغم ، فاللهم كاشفَ الهمِّ ومُذْهِبَ الغمِّ مُجيبَ دعوةِ المضطرّينَ رحمنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما ارْحَمْنا رحمةً تُغْنِنا بها عن رحمةِ مَن سواك .

كذلك في إظهار أنه ﷻ المولى والنصير ، وأنه ﷻ العليم ، قال ﷻ : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٠] ، وقال ﷻ : ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨] ، كيف يحدث ذلك إذا انتصر المسلمون بقوتهم أو إذا انتصروا بعزتهم ؟ إنما ينتصرون بنصر الله وتوفيقه ﷻ مولاهم ، فالله مولى الذين آمنوا والكافرون لا مولى لهم ، إنما يظهر ذلك عندما تحدث هذه الآلام وتجتمع البلايا والمحن ، ثم ينصر عباده المؤمنين رغم ذلك كله ليظهر أنه سبحانه مع المؤمنين ، فظهور آثار معيته التي يستحضرها أهل الإيمان الذين يظنون أنهم ملاقو الله من هذه الحكم ، قال ﷻ : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا

يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥١] ، الأمر أمره سبحانه يقلب القلوب كيف يشاء ، لولا أنه ﷻ أزاغ قلوب من شاء ثم هداهم لما علمنا ذلك ، أما دعاء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أقوام فقال : « **اللهم الْعَنْ لِحْيَانَ ورِعْلًا وذَكْوانَ وعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ ورسولَه** » ، ثم أنزل الله ﷻ عليه : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، فهناك ممن كان سماهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : كعكرمة وسهيل بن عمرو وأمثالهم ممن سماهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في دعائه تاب الله ﷻ عليهم ، لنعلم أن الله وحده الذي له الأمر ، وأنه وحده مقلب القلوب ، لنلتجئ إليه وحده في تثبيت قلوبنا ، وفي دوام الهداية علينا ، فالله ﷻ هو الذي هدى ، وهو الذي يمن باستمرار الهداية ، لذا قال الصحابة :

والله لولا اللهُ ما اهْتَدَيْنا ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّيْنا
فانزِلَنْ سكينةً علينا وثَبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقيْنا
والمشركون قد بَغَوْا علينا إذا أرادُوا فتنةً أبَيْنا

هكذا كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول معهم ، ويمد بها صوته كما يمدون ؛ لأنهم يلجؤون إلى الله ويعلمون تقليبه للقلوب وللأقدام ، فهو الذي يثبت من يشاء ﷻ ، ليرينا ﷻ أنه

الغالب على أمره ، فلولا بيع إخوة يوسف له لما كان له السلطان عليهم بعد ذلك ، ولولا دخوله السجن لما كان له الملك بعد ذلك ، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] ، فما شاء ﷻ كان وما لم يشأ لم يكن ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٦] ، وقال ﷻ : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] ، كل هذه أسماء وصفات وأفعال لله ﷻ ليرينا آثارها بوجود الآلام التي لا يمكن أن تظهر لنا إلا من خلال وجود هذه الآلام والمحن ، ليرينا ﷻ أنه يمهل ويحلم حتى يمد للظالم مدة من عمره يمهله فيها ، ثم يأتيه من عذاب الله ما يأتيه ، فإذا تاب إلى الله ﷻ ، « **فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له** » [رواه ابن ماجة (٤٢٥٠) ، وحسنه الألباني] و « **والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهبَ اللهُ بكم وَلَجَاءَ بقوم يذنبون فيستغفرون اللهَ فيَغفِرُ لهم** » [رواه مسلم (٢٧٤٩) ، وأحمد (٨٠٢١)] ، ألم تسمعوا لقصة أصحاب الأخدود ، فبعد أن ذكر إجرام المجرمين وقتلهم أولياءه ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠] ، قال الحسن : « انْظُرُوا إلى هذا الكرَم ، قَتَلُوا أولياءه ثم هو يدعُوهم إلى التوبةِ » ، هو سبحانه يتوب على من يشاء ، فربما نرى في أعدائنا من يتوب الله عليه بعد ذلك .

كذلك ليرينا قدرته وإملاءه لمن لم يتب منهم : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : ٤٥] ليظهر لنا متانة كيده ﷻ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥-١٧] ، نزلت هذه الآيات ورسول الله ﷺ في مكة محاصر مستضعف ، ونفَذَ ما أراد الله ﷻ في زمن يسير ، في سنوات معدودة كما وعد ﷻ أنه هو ﷻ الذي يكيد ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، فلا تظنوا أنه غائب فهو على كل شيء شهيد ، وهو ﷻ لا يغيب عن خلقه ، ولا يغيبون عنه ﷻ : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ : ٤٧] ﷻ ؛ أي : لا يغيب بتدبيره وملكه ، وإلا فهو ﷻ حجابه النور ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - .

كذلك كل أسمائه وصفاته لها آثارها في كل هذا الوجود التي لا بد أن تظهر ، وهو يحب أن يتعرف إلى عباده من خلال أفعاله ومقاديره ﷻ ، من أجل ذلك قدّر الآلام التي هي كثيرة مؤلمة لنا ، لكن لو نظرنا إلى هذه المصالح والحكم ونظرنا إلى أسمائه وصفاته التي من مقتضياتها تقدير هذه الآلام لذابت الآلام ، وكانت حلاوة محبة الرحمن وحلاوة الإيمان والشوق إليه ﷻ والرضا به وتفويض الأمور إليه ﷻ مذهبة لآلام المسلمين ، وعندما يظهر لهم من الحِكَم ما لم يكن قد ظهر قبل ذلك يود هؤلاء المعذبون أن لو سحبوا من يوم ولدتهم أمهاتهم بل من يوم بدأت الدنيا على وجوههم في الله

ﷻ ، أمّا ورد في الحديث الصحيح ما يدلنا على ذلك ؟ ماذا طلب هؤلاء الشهداء حين قُتلوا يوم أحد ؟ ماذا طلبوا من ربهم حين اطلع عليهم اطّلاعة ؟ وماذا سألوه : سألوه أن يعودوا إلى الدنيا وأن يقتلوا فيه مرة أخرى [رواه مسلم (١٨٨٧)] ، ألم يجد عبد الله بن حذافة ﷺ حلاوة البذل وحلاوة الإيذاء ؟ عَجَب والله أن يقال حلاوة الإيذاء ، لكنها القلوب المؤمنة التي رأت بعين البَصيرة ما وعدها الله ﷻ ، هذا عبد الله بن حذافة يبكي عندما يُرفع في البكَرة ليُلقى كما ألقي أصحابه في القِدر الذي يغلي فيه الزيت ، فإذا أصحابه عظام تلوح ، فيبكي فيظنه ملك الروم قد جزع من الموت فيقول : « أبكاني أنّي قُلتُ في نفسي : تُلْقَى الآنَ في هذه القِدْرِ فتذهبُ نفسُك وقد كنتُ أشتهي أن يكونَ لي بعددِ ما في جسدي مِن شَعرٍ أنفسٌ فتلقى كلُّها في هذا القِدْرِ في سبيل الله » ، فسبحان الله رب العالمين على هذه المحبة التي قذفها في قلوب أوليائه ، والتي جعلهم بها ﷻ لا يرون هذه الآلام ، بل يستعذبونها في الله ﷻ ، ويود أهل العافية في الآخرة لما يرون من ثواب البلاء أن تُقرض جلودُهم بالمقاريض في الله ﷻ ونسأل الله حسن العافية ، ونسأله سبحانه الإعانة وحسن عبادته ﷻ ، « عن جابر قال : قال رسولُ الله ﷺ : « **يَودُّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ حين يُعطى أهلُ البلاءِ الثوابَ لو أن جلودَهم كانتْ قُرِضَتْ في الدنيا بالمقاريض** » [رواه الترمذي (٢٤٠٢) ، وحسنه الألباني] ، كل

ذلك نقوله مقدمة كي لا تجعلنا الآلام الكثيرة نيأس ، وإن كان غرضنا في الحقيقة أن نبحث في تفريط الأبناء بعد أن سمعنا كيد الأعداء ، نريد أن نتعلم ما يلزمنا نريد أن نعرف واجبنا تجاه تقصير أبناء هذه الأمّة الذي أدى إلى وجود الآلام لكي ندعو كل المقصرين - ونحن من أولهم - إلى التوبة من التقصير والعودة إلى الله ﷻ ، فإن أبناء الأمة كانوا في التقصير على درجات متفاوتة ، والحقيقة أن التقصير هو المؤلم لصاحبه قبل أن يكون جالبًا للآلام على غيره ، والبعدُ عن الله هو الجالب لألم الخوف والرعب ، فإن الأمن والإيمان قرينان ، والظلم والخوف قرينان ، نسأل الله المؤمن المهيمن أن يؤمننا في بلادنا وأوطاننا ، وأن يؤمن المسلمين في المشارق والمغارب ، فالله ﷻ هو وحده الذي بيده الأمر كله ، فاللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا .

نقول : فريق من أبناء هذه الأمة تقصيره أعظم التقصير ، وبه نبدأ لأنه أحوج الناس إلى التوبة إلى الله ﷻ ، هذا الفريق تقصيره ليس تقصيرًا عاديًا ، إن هذا الفريق باع نفسه لعدوه - والعياذ بالله - إنه رأى الدولة والغلبة للكفرة والظلمة والمجرمين فباع نفسه لهم ، وباع دينه بعَرَض من الدنيا ، فصار في خطط الأعداء منفذًا لمكرهم ، ويدًا قذرة نجسة تطبق ما يريد الأعداء ، وجعل من لسانه لسانًا للعدو ينشر به الأباطيل والضلالات التي يريد العدو نشرها

في المسلمين ليتمكن من ذلك الجسد الواحد ؛ لأنهم يعلمون أنهم والله لا يقدرون على المسلمين وجسدهم حي ، ومجتمعهم موجود ، وإيمانهم في قلوبهم ، لا يقدرون على المسلمين إلا إذا كانوا مخدرين ، إلا إذا انتشرت الأمراض في ذلك الجسد ، لذا أحبّوا نشر البدع والضلالات والكفريات ، فبعد أن كان الكفار في غابر الأزمان هم الذين يتكلمون ويطعنون في الإسلام إذا بأناس يتكلمون بألسنتنا ، قلوبُهم قلوب شياطين في جثمان إنس ، إذا بهم يتكلمون بما يريد الأعداء ، حتى طعن منهم في وجود الله ﷻ وبقائه وحياته (١) حتى طعن منهم من طعن في كتابه وكلامه وأرادوا تصويبه بالقلم الأحمر (٢) ـ خسروا وخابوا ـ والعياذ بالله ـ ، حتى وُلد منهم من يطعن في شرع الله ويصفه بالتخلف والرجعية والعياذ بالله ، حتى وُلد منهم من يطعن في أحكام الله ويتركها إلى ما أوجدته زبالة الأذهان وسخافة العقول الأرضية البشرية الوضعية ، وُجد في المسلمين ـ فيمن يتكلم بلسانهم في الحقيقة وولدوا بأسماء أراد

---

(١) كتلك الرواية التي حاز كاتبها جائزة نوبل عليها ويصور تاريخ الخليقة بأسماء مستعارة كانت نهايته تلخيص فلسفة موت الإله ومولد السوبر مان العلم والمعرفة الحديثة ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا .

(٢) كذلك الذي سموه عميدًا للأدب وقال عن القرآن إنه الشعر الجاهلي تعالى الله عن قوله علوًا كبيرًا .

آباؤهم بها أن يكونوا مسلمين بالفعل ، تتأكد من ذلك بأن أباه حين سماه محمدًا أو أحمد وغير ذلك من الأسماء الإسلامية كان يريد له أن يعبد الله ﷻ ، وما تصور في يوم من الأيام أن يكون حربًا على الإسلام والعياذ بالله من ذلك ـ وُجد من يصد عن سبيل الله ، ووجد من يحارب الإسلام ، وهذه الفئة تنقسم إلى : من يفعل ذلك على بصيرة ، ويعلم أنه ينفذ مخططات الأعداء الذين يريدون الصد عن سبيل الله ويريدون أن ينقلب الناس على أعقابهم ، كما أخبر الله ﷻ عن ذلك ، قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٩] ، وقال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٠] ، فعلموا أن الأعداء يريدون ذلك فطّبقوا هذا ، وسَعَوا في نشرِ ما يحبُّه الأعداء من نشر الفاحشة : ﴿ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [النور : ١٩] ، ويكرهون أن ينتشر القرآن والصلاة والحجاب ويكرهون أن تنتشر دعوة الله ، فهذا الذي هو على بصيرة ، ويعلم أنه جندي ذليل خبيث لأعداء الله ﷻ ، باع كل شيء ، وعلنًا يبيع والعياذ بالله ، قديمًا كان يستتر ، وإذا به الآن يعلن أنه قد باع كل شيء ، ليكون أذل من كلب عندهم والعياذ بالله ، وهذا الصنف من الناس هو في أسفل الدركات إن لم يتب إلى الله ﷻ ـ وقد دعاه الله إلى التوبة ـ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ

ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، وقال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، لذلك نقول لهؤلاء: دعاكم ربكم ﷻ إلى التوبة فلا تحاربوا دينه أبدًا، فإنكم لستم تطيقون حرب الله ﷻ، فالله ناصر دينه مهما حدث، كما أخبر ﷻ: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣]، وهناك صنف من هذا النوع أيضًا، ليس على تلك البينة لكنه متابع لأهل الباطل، متابع لأعداء الإسلام، وهو يُخدع ويقول: هم من أهل الإسلام، خدعوه عندما تكلموا بلسان المسلمين، وتسمَّوْا بأسماء المسلمين، لكنهم ينفذون مخططاتهم وينفذون ما يريدون، نوجه له قول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٤]، نصيحتنا لأننا ما زلنا نعده من أبناء الأمة وإن كان مخدوعًا، لكن والله تيقن أيها المخدوع الذي ينفذ مخططات أعداء الله، الذي يعين على ما يريدون من أذية المسلمين وآلامهم وذبحهم وانتهاك حرماتهم وإذهاب دعوة الحق من

بينهم ، نقول له تأكد أنك إن استمررت على ذلك فمصيرك مصيرهم ، وإن كنت لا تريد أن تفتح عينيك على هذا المصير نوجه إليك قول النبي ﷺ : « **دعاةٌ على أبوابِ جهنّمَ مَنْ أجابَهم إليها قَذَفُوه فيها** » .

[رواه البخاري (٧٠٨٤) ، ومسلم (١٨٤٧) ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك]

تعلم من ذلك أن هذا الشر نوعان :

النوع الأول : الدعاة .

والنوع الثاني : المستجيبون لهؤلاء الدعاة على أبواب جهنم ، قال : « **دعاةٌ على أبوابِ جهنّمَ** » هذا هو الصنف الأول الذي بينه الحديث ، والصنف الثاني : « **مَنْ أجابَهم إليها** » ماذا يكون حاله ؟ « **قَذَفُوه فيها** » ، فاحذر على نفسك أن تكون جنديًا لأعداء الله ، فإن الله لا يرضى إلا بأن يجعل مصير الأتباع كمصير السادة والكبراء : ﴿ **وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٧-٦٨] ، وهو سبحانه يقول لنا جميعًا ـ وإن كان الخطاب لنبيه ـ : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ** ﴾ [الأحزاب : ١] فاتقوا الله ولا تطيعوا كافرًا ولا منافقًا ، فهذا هو الخطر العظيم ، وهذا هو أعظم التقصير ، وهم يتحملون أوزار هذه الألوف من الدماء المسفوكة ، ومن الأرواح التي أزهقت بغير حق ، وهذه الأعراض المنتهكة في

المشارق والمغارب في البوسنة وفي كوسوفا وفي كشمير وفي فلسطين وفي العراق وأفغانستان والشيشان ، كل هذه الحرمات المنتهكة إنما يكون على هذا الصنف من المقصّرين أكبر الوزر منها ، يسائلهم ـ والله ـ اللهُ عنها يوم القيامة أنهم كانوا السبب الأول في هذه الآلام والمحن وشاركوا وأعانوا .

أما الصنف الثاني من أبناء المسلمين المقصّرين فهم : من غابوا عن الوعي ، ليست لهم قضية ، قضيتهم في الحقيقة أن يأكلوا ويشربوا ويمرحوا ويلعبوا ويلبسوا ويكونوا في أحسن المظاهر أمام الناس ، فهذا هو أكبر الهم ومبلغ العلم عندهم ، وللأسف هذا قطاع كبير من شباب المسلمين ومن رجالهم ونسائهم ، ابحث في هممهم ، ابحث عن رغبتهم ، ماذا يريدون ؟ الشريط الجديد ، الأغنية الجديدة ، الفيلم الجديد ، الصورة العارية الجديدة ، الجريدة القذرة ، المجلة النجسة ، الصديقة العاهرة ، المحمول الجديد ، المباراة الجديدة ـ والعياذ بالله من ذلك ـ ليس له هم إلا ذاك ، الموضة ، الذي يفعله شباب العالم هو الذي يريده لا يريد شيئًا غير ذلك ، وهو مجال العمل لأعداء الله ﷻ ، هو حقل الزراعة الذي يزرع فيه بذور الانحطاط في أمة الإسلام ، الذي يزرع فيه بذور الانهزام ، بذور الوهن ، بذور الانكسار ، بذور الذل ، لأعداء الله ﷻ ، هم الذين يريد أعداء الله ﷻ أن يُوجِد فيهم الواهن ، وأن

يُوجد فيهم الحزين على ما أنفق في سبيل الله من مليم واحد لا ينفق بعده أبدًا ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، يوجد فيهم الذليل المنكسر المستكين لعدو الله ﷻ ، هؤلاء هم البيئة المناسبة الذين يحبون الدنيا ليس لهم قضية في نصرة الإسلام ولا في العمل به ولا في تعلمه ، ليسوا بأعداء له لكنهم ليسوا بجنود له ، وليسوا عاملين به ، وهذا للأسف قطاع كبير جدًا عندما نحاول حصره ربما جاوز التسعة والتسعين بالمائة (٩٩ ٪) من مجتمعات المسلمين ، وهذا خطر عظيم ، وإن كان الأعداء يتربصون بمن يتعاطف فقط من هؤلاء دون أن يستجيب مع من يدعو إلى الله ﷻ ، ويتربصون الدوائر ليصدوا كل هؤلاء عن الالتزام ، تجد هؤلاء قد وجهت إليهم كل وسائل الإفساد في العالم : من الأقمار الصناعية ، من قنوات البث ، من المجلات والكتب ، من وسائل التعليم والإعلام ، من كل شيء ، يوجه إليهم كل ما يفسد ، لتشيع الفاحشة فيهم ، ويشيع الفساد ، ويشيع المنكر ، ويمنع عن وصول الخير إليهم ، فهؤلاء أيضًا مقصرون أكبر تقصير بعد الصنف الأول ؛ لأنهم لم يشعروا بألم المسلمين ، وحكموا على أنفسهم بالغيبوبة عن ذلك الجسد ، أو حكموا على أنفسهم أنهم ليسوا منهم إن لم يتألموا لألم المسلمين بالكلية ، إما لغيبوبة وإما لموت يجب أن يفصل وإلا أفسد باقي الجسد ، ولا نود ذلك أبدًا ، فإنهم

منا ـ من أبنائنا وإخواننا وفي كل مكان من مجتمعاتنا ـ نوجه لهم نصيحة بالتوبة والعودة إلى الله ﷻ ، وأن يستشعروا أن الله مَنَّ عليهم مِنةً عظمى ، فليشكروا نعمة الله بهذا الدين : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، نعم والله عِبادَ الله ، في أيديكم جوهرة ، والأعداء يريدون أن يسرقوها لكي تكونوا مثلهم بلا جوهرة ، هذه هي جوهرة الإيمان والإسلام والإحسان ، بل هي أغلى والله من الجوهرة ، وأعداء الإسلام حرموا منها وعندهم رجس وجهل وظلم وعلو وكبر لكنهم في قلبهم الحقد علينا ؛ لأن عندنا جوهرة لكن كثيرًا من أبناء المسلمين نسُوا أن معهم جوهرة فتركوها ، ويريد بعضهم ـ أو أوشك ـ أن يسلمها للأعداء ليلقيها في بحر الظلمات ، اعرف قدر هذه الجوهرة ، منة الله عليك بالإسلام وارجع إلى الله ﷻ لكي تعمل بالإسلام ، ولكي تعمل من أجله ، كذلك ناصرًا داعيًا جنديًّا من جنود الله .

ثم ننتقل إلى الفريق الآخر ـ الثالث ـ من أبناء المسلمين الذين نسبوا أنفسهم إلى الدعوة إلى الله ﷻ وإلى الالتزام بالدين في أوجه مختلفة متباعدة عن بعضها كثيرًا ، مَن سَمَّوا أو سُموا ـ سموا أنفسهم أو سماهم الناس ـ أبناء الصحوة الإسلامية ، نعم هم أيضًا

من المقصّرين ؛ لأن منهم من سلك في سبيل العمل للإسلام وفهمه أو في سبيل الدعوة إليه والعمل في نصرته سبيلًا غير شرعي ، انحرف عن المنهج - منهج الحق منهج أهل السنة والجماعة وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام - انحرفوا عنه في الفهم فقبلوا البدع والضلالات ، وربما نشروها وأعانوا على نشرها ، وربما رضوا بها وقبلوها على درجات متفاوتة مختلفة ، فكان الانحراف في المنهج من أعظم أسباب تسلط الأعداء ، وكان ظهور البدع والمنكرات فينا - أبناء الصحوة الإسلامية - من أعظم أسباب التفرق والاختلاف الذي أدى إلى ما نرى من الآلام والمحن ، لذلك لا بد أن يكون هناك منهج واحد صحيح هو منهج هذه الطائفة الظاهرة المنصورة إلى قيام الساعة - أهل السنة والجماعة - نجتمع عليه ونتآلف ونتكاتف وننسى حظوظ أنفسنا وما نريده لها في هذه الدنيا من وجاهة لها وسط الناس ومن أن يقال : فلان عالم وفلان قارئ وفلان داعية وفلان كبير وفلان عظيم ، فلننس ذلك ؛ لأنه السبب في هذا البلاء وهذه المحن ، ثم نسير في سبل شرعية ولا نفقد في غمار حماستنا الحكمة والبصيرة في دعوتنا إلى الله ﷻ ، فكم من تطبيق خاطيء للمنهج ولو كان أصحابه ينتسبون إليه حين دعوا إلى الله وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر بغير معروف بل بمنكر ، بغير فقه ولا علم وبغير مراعاة للحكمة والمصلحة ومن غير مراعاة

لسنن الله الكونية والشرعية ، فترتب على ذلك من سفك الدماء وانتهاك الحرمات ما الله أعلم به ، وترتب على ذلك من تضييع خطوات قد سبقت على طريق إظهار دين الله ﷻ ، لذلك نقول : لا بد أن نسير على منهج واحد ، وأن نطبقه كذلك تطبيقًا صحيحًا ، وأن نسير عليه بالبصيرة والحكمة والعلم والفقه ، ولا نفعل كما فعل المتعجلون الذين ضيعوا الثمرة حين أرادوا قطفها قبل الأوان ؛ لأنهم لا يراعون سنن الرسول - عليه الصلاة والسلام - بل سنن المرسلين في الدعوة إلى الله ﷻ وفي السير على سنن الله الكونية والشرعية للوصول إلى الغايات المطلوبة ، ثم هناك بعد ذلك من ينسب نفسه إلى المنهج الحق ويزعم أنه يطبقه ، وها نحن نزعم ذلك لكننا أيضًا ضمن المقصرين تقصيرًا شديدًا ، نريد أن نتوب إلى الله من هذا التقصير ، ذلك أننا لم نتعلمه كما ينبغي ولا طبقناه كما ينبغي ، بل تركنا لأمراض القلوب مساحة واسعة منا دخلت الأحقاد ودخل الحسد والغرور ، دخل الكبر والعجب ودخل الرياء - والعياذ بالله من ذلك - دخل سوء الظن والتنافس على الدنيا ، دخلت أمراض كثيرة فيما بيننا ، وعلى ألسنتنا أيضًا دخلت أمراض كثيرة ، تركنا مساحة واسعة من ألسنتنا لتغتاب وتنم ولتكذب ولتقول الباطل ولتفجر في الخصومة ، تركنا أوقاتًا طويلة لا نعبد الله ﷻ فيها ، لا نذكره ، ننام عن الصلوات ، ننام عن

دروس العلم ، نتأخر عما أحبه الله ﷻ منا ، بل لو قلت عما أوجب الله علينا لما أبعدت كثيرًا .

لذلك نقول : نحن ضمن المقصرين ، وإن كنا نزعم أننا نسير على الطريق ، لكن لسنا بالقوة المطلوبة بل هناك وَهْن ، نقول ونوجه الكلام لأنفسنا ولغيرنا : ﴿ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣] نريد أن نكون أقوياء ، « **فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** » ، هكذا قال النبي ﷺ [رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجة، والإمام أحمد] نريد أن نكون أقوياء في علمنا ، نريد أن نكون أقوياء في عبادتنا ، نريد أن نكون أقوياء في دعوتنا ، نريد أن نكون أقوياء في ما نتعامل به ، نريد أن نكون أقوياء في علاقتنا ببعضنا ، في حبنا لبعضنا ، وفي تماسكنا ، وفي صدقنا مع ربنا ﷻ ؛ لأن ذلك هو الذي يُذهِبُ الله ﷻ به ما بنا ، نعم الآلام كثيرة وما زال التقصير شديدًا بأنواع مختلفة من أبناء أهل الإسلام .

والكلمة الأخيرة التي نوجهها لأنفسنا ولمن كانوا منا ثم فارقونا ـ أعني لمن كانوا من أبناء الإسلام ثم ارتموا في أحضان أعداء الإسلام وساروا على مخططاتهم ـ نوجه النداء بالتوبة الذي وجهه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ للناس : « **يا أيها الناسُ توبوا إلى الله واستغفِروه فإني أتوبُ إلى الله وأستَغْفِرُه في كلِّ يوم مائةَ مرةٍ** » [رواه مسلم (٢٧٠٢)، وأحمد (١٧٨٢٩) واللفظ له بدون « يا أيها الناس »] ،

فاللهم اقْسِمْ لنا مِن خشْيَتِكَ ما تَحُولُ به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتِك ما تبلِّغُنا به جنتَك ، ومن اليقينِ ما تُهَوِّنُ به علينا مصائبَ الدنيا ، اللهم متّعْنا بأسماعِنا وأبصارِنا وقوّتِنا أبدًا ما أحييتَنا واجعْله الوارثَ منا ، واجعلْ ثأرَنا على مَن ظلمَنا ، وانصرْنا على مَن عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتَنا في دينِنا ، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ همِّنا ولا مبلغَ علمِنا ، ولا تسلِّطْ علينا مَن لا يرحمُنا ، اللهم فرِّجْ كَرْبَ المكروبين ، وفُكَّ أسرَ المأسورين ، وارفعِ الظلمَ عنِ المظلومين ، اللهم كُفَّ أيديَ الذين كفروا فأنت أشدُّ بأسًا وأشدُّ تنكيلًا ، اللهم كفَّ بأسَهم عن المسلمين فأنت أشد بأسًا وأشدُّ تنكيلًا ، اللهم أنزِلْ بهم بأسَك الذي لا يُرَدُّ عن القومِ المجرمين ، اللهم مَن أرادَنا والمسلمين بسوءٍ فاجْعلْ كيدَه في نحرِه ، واجعلْ تدبيرَه في تدميرِه ، واجعلِ الدائرةَ عليه يا ربَّ العالمين ، اللهم اغفِرْ لنا وارحمْنا وتبْ علينا إنك أنت الغفورُ الرحيم ، اللهم انصرْنا ولا تنصرْ علينا ، اللهم امْكُرْ لنا ولا تمكرْ بنا ، اللهم اهدِنا ويسِّرِ الهدى لنا ، اللهم اجعلْنا لك شَكَّارِين ، لك ذكّارين ، لك رغّابين رهّابين ، إليك مُنِيبينَ مُخْبِتين ، تقبَّلْ توبتَنا ، واغسِلْ حوبتَنا ، واهدِ قلوبَنا ، وسدِّدْ ألسنتَنا ، واسلُلْ سخائِمَ صدورِنا ، اللهم اجعلْنا مِن عبادِك المخلَصين ، ربَّنا اغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا وثبِّتْ أقدامَنا وانصُرْنا على القومِ الكافرينَ .